صورة بطولة الملوك الأيوبيين في كتاب قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان لأبن الشعار الموصلي (ت ٦٥٤ هـ)

أ. د. صالح علي حسين الجميلي
جامعة تكريت ـ كلية التربية
قسم اللغة العربية

م. م. ناظم فرج عباس
تربية صلاح الدين
ثانوية العلم للبنين

بِسْمِ اللهِ الرَحْمَنْ الرَحِيمْ

المقدمة

وصف لكتاب قلائد الجمان وأهميته:

يُعد كتاب قلائد الجُمان في فرائد شعراء هذا الزمان المشهور بـ عقود الجُمان في شعراء هذا الزمان، لكمال الدين أبي البركات المبارك بن الشعار الموصلي (ت ٦٥٤هـ)، من المصادر المهمة التي أرّخت لفترة طويلة من تاريخ الأمة الإسلامية، فضلا عن ترجمته لطائفة كبيرة من الشعراء المشهورين والمغمورين الذين عاصروا المؤلف ولاسيمّا فترة رحلاته التي بدأها سنة ٦٢٢هـ[١] لحين وفاته سنة (٦٥٤هـ) وقد ذكر محقق الكتاب الأستاذ كامل سلمان الجبوري أن الكتاب في الأصل عشر مجلدات ضخمة، سلم لحسن الحظ منها ثمانية أجزاء، إذ فُقد الجزء الثاني والثامن منها، وقد تناول المؤلف في هذا الكتاب ترجمة (١٠٠٤) من شعراء زمانه، منها (٦) تراجم مكررة [٢]، وقد جاءت تراجم شعرائه مرتبة على الحروف الهجائية، وتكمن أهمية الكتاب فضلا عن تراجم الشعراء، في انه يترجم لأناس من مختلف الطبقات يجمعهم قاسم مشترك هو قول الشعر، ففيهم الملوك الأيوبيين والوزراء والقضاة وأهل العلم والمؤرخين الجغرافيين والأدباء والشعراء والفقهاء والمتصوفة، ولم يختص ابن الشعار بأهل حرفة معينة،أو بطبقة واحدة من الناس أو يختص ببلد معين.

ويؤلف الكتاب في مجموعه حصيلة لقاءات ابن الشعار وتماسه المباشر مع أصحاب تراجمه.

وتأتي أهمية قلائد الجمان أيضا من حفظه وإيراده لارث حضاري من انفس تراث الأمة، آلا وهو الشعر السجل الحافل لتاريخ هذه الامة، فقد حفظ وأورد قدسية (قصيدة من قصائد حروب صلاح الدين الأيوبي وفتح بيت المقدس) لم ترد في المصادر الأخرى كما ذكر صاحب ديوان المبشرات القدسيات، الشاعر عبد المنعم الجلياني.[٣]

فضلا عن إن ابن الشعار قد نقل هذه القدسية الفريدة من شيخ الشاعر الجلياني نفسه ابي الخير بن ابي المعمر التبريزي، الذي سمعها من الشاعر يُنشدُهُ اياها، مما يضفي على هذه القدسية عاملاً من الثبوت والتحقق، كون ابن الشعار قد رواها عمن يعاصر الشاعر منشدها[٤].

ولأن الكتاب في معظمه قصائد في تصوير ومديح آل ايوب، فقد تم استنطاق النصوص والوقوف على الصور فيها ولاسيّما صور البطولة والشجاعة التي ابداها الأيوبيون هؤلاء الملوك الذين سطروا بجهادهم للصليبين وأعداء الأمة الإسلامية أروع الأمثلة الناصعة في الصمود والجهاد ومحاربة الأعداء ومجالدتهم وتم على أيديهم تحرير بيت المقدس وطرد الغزاة في معارك فاصلة وعديدة اثبتوا فيها بأنهم ملوك من طراز نادر تبوَّؤا مناصبهم بكل جدارة واستحقاق.

صورة بطولة الملوك الأيوبيين:

يرتبط معنى الصورة في كلام العرب بحقيقة الشيء وهيئته وصفته ٥ وجاء في لسان العرب ((المصور: وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها، وصورة الله صورة حسنة فتصوّر، وتصورت الشيء، توهمت صورته فتصور لي والتصاوير، التماثيل))[٥]، وقال ابن فارس: ((الصورة. صورة كل مخلوق، والجمع صور وهي هيئةُ خلقته، والله تعالى الباريءُ المصوّر ويقال: رجل صَيَّرٌ إذ كان جميل الصورة)). [٦]

ومن جانب آخر ظهرت صفات في الصورة امتدت بين مختلف المذاهب النقدية لعل في مقدمتها كون الصورة أداة الخيال ووسيلته ومادته الهامة التي يمارس بها ومن خلالها فاعليته ونشاطه. (٧)

فالصورة هي أول شيء لجأ اليه الإنسان البدائي للتعبير عن نفسه وعن أفكاره، إذ إنها مخزونة في عقل الإنسان الباطني ومحفورة في خياله ومصبوبة في تجاربه الذاتية لتُعبر عن مكنوناته لأنها تمثل وعيه الأول.

وعلى هذا الأساس أسهمت الصورة في بناء الإطار الثقافي العام لواقعنا بوصفها أداة تخاطب أهم حاسة من حواس الإنسان البصر.

ومن هنا جاء فعلها مصحوباً بالكلمة المسموعة والمكتوبة مما أضاف بُعداً ثقافيا ومعرفياً في الفكر الإنساني لأن الصورة هي ثقافة وقراءة لعلاقة الإنسان بعالمه. (٨)

ويمكن القول أن الصورة: هي ((وسيلة الشاعر والأديب في نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه)). (٩)

فالصورة تستعمل للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي وتطلق احياناً مرادفة للاستعمال الإستعاري للكلمات. (١٠)

ونجد أن أول من استعملها في مجال الأدب هو الجاحظ فقال وهو يتحدث عن الشعر بأنه : ((ضرب من النسج وجنس من التصوير)). (١١)

وذكرها ابو هلال العسكري في سياق حديثه عن اقسام التشبيه فجعل من اقسام التشبيه: ((تشبيه الشيء بالشيء صورة)). (١٢)

فيما عدها الجرجاني ((تمثيل وقياس)). (١٣)

أما استعمالات الصورة عند النقاد المحدثين، فنجد ان حقيقتها مازالت موضع اختلاف لديهم في مجالات التحديد، فذهبوا مذاهب متعددة هي اقرب إلى الغموض منها إلى الوضوح. (١٤)

فعرفها البعض بأنها ((مشهد أو رسم قوامه الكلمات المشحونة بالاحساس والعاطفة)).[١٥]

فيما عرفها احمد الشايب بقوله: ((الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه)).[١٦]

ومقياس الصورة من روعة وقوة يعود إلى التناسب بينها وبين ما تصوّر من عقل الكاتب ومزاجه تصويراً دقيقاً يخلو من التعقيد ونجد فيه روح الأديب وقلبه بحيث نقرؤه وكأننا نحادثه ونسمعه كأننا نعامله.[١٧]

ولعلنا نجد في تحديد معنى الصورة وتعريفها السابق أفضل التعاريف الفنية للصورة نظراً لما يحمله في تضاعيفه من الوضوح والمرونة والدقة العلمية في تحديد رؤية هويتها ومقياسها، ولأنه جامع كما يقول المناطقة.[١٨]

ولا يقتصر معنى البطولة على منازلة الأعداء ومقاومتهم ورد كيدهم وما الى ذلك من صفات الشجاعة والاقدام في الحروب، بل يتعدى كل ذلك الى القيم الخلقية والإنسانية التي يحملها البطل، هذه القيم التي ارتبطت مع بطولة السيف والطموح الى المُثل الرفيعة فاصبح البطل رمزاً نشأت من مفهومه عقيدة اسطورية منذ الأزمان البعيدة الموغلة في القدم عُدّت بموجبها شخصية البطل وكأنها شخصية اسطورية ((قد تكون من سلالة الهية حسب معتقدات الديانات الوثنية المشركة، لها قوة خارقة ومهارة تميزها عن البشر)).[١٩]

وقد ارتبطت صفات البطل بعقيدة تغذيها وهي أساس البطولة لكي تكون شجاعة نادرة تتحدى الأخطار دفاعاً عن العقيدة المفداة.[٢٠]

وتطور معنى البطولة وصورة البطل في الشعر العربي مع تطور الوعي الإنساني واهتم العرب بالبطل اهتماما منقطع النظير فذهبوا ينسجون القصص والملاحم والأساطير في بعض الأحيان حول البطل فضلا عن نظم القصائد فيه، فالبطولة عند الشعراء الجاهليين تنبع ((من صفات الشخص الذي يعدونه ذخيرة لوقت الخطر وأهلاً للاعتماد عليه وقت القتال)).[٢١]

وعلى هذا كان البطل هو قبلة الأنظار الذي تتجه اليه أبصار المقاتلين كونه حجر الزاوية في المعركة وعليه تتوقف نتيجتها فشجاعة البطل وتصرفه وتوجيهاته في قيادة معركة ما أضحت سمة من سمات القيادة البطولية لرجال الأمة فخلدهم تراثها بكل فخر واعتزاز، ولنا في صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي رسمها له الامام علي بن ابي طالب (رضي الله عنه وارضاه) خير دليل على ان البطل القائد هو الذي يكمن مفتاح النصر بيديه بل أنه محرك المعركة ولولبها بمجملها، قال الامام علي (رضي الله عنه وارضاه): ((كنا إذا اشتد البأس أتقينا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكان اقربنا الى العدو)).[٢٢]

وقد تخرج الكثير من أبطال العرب من مدرسة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) الذين شهدت لهم سوح الوغى والفتوحات ومعارك الذود عن كرامة الأمة بأسمى آيات الشجاعة والإقدام والتضحية، فكانوا خير سلف سار على دربهم أبطال الأمة العربية والإسلامية وعلى امتداد هذا الزمن الطويل منذ ظهور الاسلام وحتى يومنا هذا زخر الأدب العربي وتاريخه بنماذج رائعة من صور البطولة والأبطال الذين ضحوا بأنفسهم وقدموا أرواحهم رخيصة في سبيل غاية سامية هي الحفاظ على العروبة والإسلام، وقد تناول الشعر العربي هذه القضية وامتلأت صفحات أدبنا العربي بملاحم هؤلاء الافذاذ فكان شعر البطولة مصورا باصدق تعبير عن قسوة المعارك وشدة اللقاء وما جرى من احداث جسام ظلت ماثلة تحكي للاجيال اللاحقة تلك الصورة الناصعة لرجال الأمة الإسلامية الأبطال، فكان الشعر المجال الرحب الفسيح الذي أصبح سوقاً رائجة للشعراء يعرضون فيه جُلّ قصائدهم التي عبرت بكل ما يمتلك الشعراء من قدرة تصويرية عن الفخر والاعتزاز ببطولات جند العرب والمسلمين في أي مكان وزمان.

وقد استطاع الشعر أن يؤدي مهمة عظيمة فأصبح ((صورة لصيحات المجد وصدى للمآثر الحميدة وديواناً حافلاً لما قدمه كل بطل من ابطالها وهو يحاول ان يقدم العمل الفذ ويكون النموذج المتقدم، ويحقق الهدف الذي يتوق اليه الجمهور)).[٢٣]

ولم يُعدم الشعراء كذلك القدرة الادبية المتميزة التي كانت تعطي كل حركة من حركات الحرب لونا وكل بُعد من ابعادها صوتاً يتناسب مع أهمية الحديث وينسجم مع وقع الخبر، فاضفى الفن البلاغي المتميز بضروبه البيانية والبديعية على كل لوحة من لوحات الحرب

لوناً آخر من بطولات المقاتلين والروح الأصيلة التي تزخر بها قلوبهم، فتزهر في عيون المعاني صور المجد وتلمع في ظلال البطولة خوارق التضحيات لتتحول في أناشيد الأبناء الى زهو متجدد وتصاغ في عيون الأطفال أحلام المجد المستقبلي المشرق وأغاني الانتصار التي تبقى روعتها رائقة في كل حديث.[٢٤]

وكانت الحروب الصليبية مادة غزيرة نهل الشعراء من صولات أبطالها المسلمين ما عبروا به عن إعجابهم وفخرهم معاً بهؤلاء الابطال ويقف في مقدمتهم الملوك الأيوبيون الذين انزلوا بالصليبيين هزائم مشهودة، ومن هؤلاء الشعراء إبن سناء الملك (ت ٦٠٨ هـ) والعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ) وغيرهم فسجلوا أمجاد الأيوبيين الحربية حتى يحق ان تسمى تلك الأشعار بالأيوبيات[٢٥]،مثل قصيدة إبن سناء الملك التي نظمها مهنئاً الملك صلاح الدين الأيوبي بفتح بيت المقدس وما خاض فيه من سحق للصليبين وملوكهم، وفيها قال واصفاً سيفهُ :[٢٦]

وسللت سيفاً مُصَلَّتاً للمعتدي ... وصَبَبْتَ سيباً مرسلاً للمعتفي

والله اكرمُ ان يضّيعَ أمَّةً ... آمنت بعدلك بعد طول تخوّفِ

وظل رمز البطل والبطولة يمثل دلالة اشارية باقية وصورة مجازية معبرة عن وجود حي يؤثر في السلوك الفردي والجماعي،وبقيت محاولة تفسير ظاهرة البطل تفسيراً خارجاً عن إطار الظروف الاجتماعية والبيئية عند النقاد متباينة، وقد أدرك الشعراء أن الفرسان والأبطال وهم يمارسون ألوان الشجاعة إنما يقدمون نماذج الاقتحام البطولي الذي هو جزء من المجتمع، وان أبناء هذا المجتمع المتطلعين إلى هذه الصورة يعلمون بأنهم سيتحملون مهمة الأبطال في يوم من الأيام، وسيؤدون دورهم على الوجه الأكمل اعتزازا بما قدمه فرسانهم سابقا، وبما حققوه من مجد لأمتهم على يد هؤلاء الفرسان .[٢٧]

وقد عبرّ الشعراء الذين واكبوا هذه المعارك والحروب عن ذات الأبطال الذين أهلتهم صفاتهم القيادية البطولية والأعمال الجليلة التي قاموا بها، فكان ان تبوّؤا اعلى مراتب البطولة والشجاعة وينبع هذا من إيمان البطل في المجتمع العربي بالقدر والخلود بالقضية الحية التي

تطيب من اجلها الشهادة ودفعه هذا الى خوض الحروب دون خوف أو وجل، ومصارعة الطغيان بلا هوادة.[٢٨]

وقد دفع شعور الإنسان بأن الضعف في حد ذاته فناء، الى أن يبقى متوثباً وتظل أسلحته مهيأة، وقد حفلت صور الشعر العربي بهذه المظاهر، فعبّر الشعراء من خلالها عن الاندفاع وراء النصر والتفاني من اجل تحقيقه والدفاع عن الوجود، فكانت المعاني التي ساقوها تتمثل في ركوب الموت والتشمير عند الحرب وإستطابة الموت في سبيل تحقيق الغاية الأسمى وهي صون كرامة الأمة والحفاظ على وجودها وهيبتها [٢٩]، فصورة البطل المعّول عيه عند تأبط شرا بكونه البصير بكسب المحامد والسباق الى المجد والجريء في اقتحام الأهوال، صاحب رأي صائب وكرم لا حدود له وفضل واسع عريض، قال: [٣٠]

لكنمـــا عولـــي ان كنـــتُ ذا عِـــوَلٍ ... علـى بصـير بكسـب الحمـدِ سـباق
سـباق غايـات مجـد فـي عشيرتـه ... مُرّجـع الصـوت هـداً بـين ارفـاقِ
عـــاري الظّنابيـــب مُمَتـــدَّ نـــواشرهُ ... مـدلاج ادهـمَ واهـي المـاء غَسـاقِ
حَمـــال الويـــة،شهـــاد انديـــة ... قَـــوّالِ مُحكمـــةٍ، جَـــوّاب آفـــاقِ
فـذاك همـي وغـزوي اسـتغيثُ بـه ... إذا استغثتَ بضافي الرأس نغّاقِ... [٣١]

وعلى هذا النهج سار الشعراء في تصوير ممدوحيهم من الابطال، فاليهم تنتهي كل مكرمة وكلَّ فضيلة واسبغوا عليهم من الاوصاف والصور، فجعلوهم في اعلى المراتب، وكانت هذه الصور تنبعث من فهمٍ نفسي يتمثل في انه لولا هؤلاء الابطال لحدث ما لا يحمد عقباه، وفي احيان اخرى كانت الصور هي بمثابة رسائل تهديد ووعيد من الشعراء انفسهم لا من الابطال، يبلغون فيها المارقين على الدولة والخارجين عن النظام، ان البطل الفلاني لهم بالمرصاد وسيفعل كذا وكذا... الخ من الامور التي اوجدها الشعراء، اذ تحول الشعراء الى وسائل اعلامية بيد الملوك يحذرون اعدائهم من البطش والقتل، فهذا الشاعر عرقلة الدمشقي (ت٥٦٧هـ)، قال متوعداً لصوص الشام ومهدداً بأن الناصر صلاح الدين سوف يفعل بهم الافاعيل، قال: [٣٢]

رويـــدكم يـــا لصـــوص الشـــامِ فأنـــي لكـــم ناصـــحُ فـــي مقالـــي
وإياكـــــم مـــــن سَـــــميّ النبـــــي يُوسُـــفَ ربَّ الحجـــا والجمـــالِ
فـــذاك مُقطـــعُ ايـــدي النســـاءِ وهـــذا مقطـــعُ أيـــدي الرجـــال

فالصورة التي جاء بها الشاعر، بدأها بالنصح وان كان نصحه ينم عن تهديد ووعيد، فقال: (رويدكم)، أي ايّاكم من سمي النبي، ثم تأتي الصفحة الاخيرة للصورة وفيها تبرز قدرة الشاعر على رسم ملامح صورة البطل، فهو عنده كالنبي يوسف الذي قطعت النساء اياديهن عندما انشغلن بالنظر اليه، أما ممدوحه، فهو مقطع ايدي كل من يخرج عليه ويعبث بأمن الدولة، ويهدد اركانها ويعمل الفوضى فيها، وعلى هذه الشاكلة نجد العديد من قصائد المدح التي خص بها الشعراء البطل الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، فهو أعظم بطل في الحروب الصليبية، ظفر بتقدير الشعراء وإعجابهم، فأحاطوا به ينظمون أسباب مجده ويشيدون بوقائعه وجهاده،[٣٣] ومن هؤلاء العماد الكاتب (ت ٥٩٧هـ) إذ قال في تصويره للملك صلاح الدين: [٣٤]

هُنّيتَ صَوْنك دمياطَ التي اجتمَعَت لهـا الفـرنجُ فمـا حلـوا ولا ربطـوا
مصـــر بيوسُفهـــا اضـــحت مُشرفـــةً وكـــلُّ امـــر لهـــا بالـــعدلِ مُنْضَـــبطِ
وحـين وافـى صـلاح الـدين اصـلحها فللمصالـــحِ فـــي أيامـــه نَمَـــطُ

فصورة الشاعر التي رسمها للناصر صلاح الدين، جاءت بفعلٍ صونه لدمياط، إذ جمع لها الفرنج اعداداً غفيرة، فما استطاعوا ان يفعلوا شيئا، إذ كان لهم البطل بالمرصاد، ففرق جمعهم وشتت جيشهم شذر مذر، واضحت مصر مشرفة به، ونظّم شؤونها و أمورها بالعدل والمساواة بين الناس فاصلح ما أفسده الآخرون وجعل منها قبلة تتجه اليها الأنظار من كل حدب وصوب. وتتعدد صُور الملك صلاح الدين لدى الشعراء، فهم تسابقوا في مديحه والتودد اليه ونجد في كتاب قلائد الجمان عدداً كبيراً من الشواهد على بطولته وبطولة غيره من الملوك الأيوبيين، ومن هذا ما جاء به الشاعر ابن الشحنة (ت٦٠٦هـ)' فقال في تصوير بطولة الملك الناصر صلاح الدين ومدحه:[٣٥]

لقـد أُشْـعِرَت منـكَ النفـوسُ مهابـةً تكـادُ لهـا صُـمُّ الجبـال تَشَقَّـقُ
اذا يَمَّمَـتْ ارضـاً ركابُـك اوشكـت لوطأتهـا تلـك المواطـنُ تَصعـقُ
فمـا بيـن كـفيـك المنّيـة والمنُـى كـذاك السـحابُ الَغْمـرُ يَـروْي ويُغـرِقُ
كتيبَتُـكَ الشهبـاءُ بـاليُمـن سَيْرُهـا ورايتُـكَ الصفـراءُ بالنصـرِ تخفِـقُ
إذا سارتـا سـار القضـاءُ مبـادراً يؤُمُّهمـا مـن كـل أوبٍ ويُحـدِقُ
إذا بَسَمْـت فيـه الصـوارمُ كَلَّحَـتْ لهـا اوجـهٌ كانـت مـن البشـرِ تُشـرِقُ
فـان اظلمـت آفاقُـهُ ضـحَكت بـه لَهُـنَّ ثغـورٌ فـانثنى وهـو أبلـقُ
وان بَرَقَـتْ فيـه الاسنـة اصـبحت عيـونُ الـردى والحتـف مِنهـن تُبْـرِقُ
تجَشَّمتـهُ والمـوتُ فيـه مَدَلَّـهٌ رقـابُ المنايـا خيفـةً فيـه تَخفـقُ
بفيلـقِ عـزمٍ لا يُفَـلُّ عديـدهُ يـؤازره مـن نصـرِ ذي العـرشِ فيلـقُ
وفـي تـلّ حطينَ حَططْتَ على العـدا مـن الـذلّ... آيـسٌ يُغـرِقُ...[٣٦]
رَمَيْـتَ بـالحـاظ الجيـاد جيادَهُـمْ فضـاق بهـم رحـبُ الفضـاءِ...
وعاطيتهـم كأسـاً مـن المـوتِ مـرَّةً ((اذا ذاقهـا مـن ذاقهـا يتمَطَّـقُ))
وغـادرتهم صـرعى أسـالتْ طُلاهُـمُ حـدودُ المواضـي لا الرحيـقُ المعتَّـقُ

لقد جاء الشاعر بما عنده من مهارة في النظم وقدرة التصوير وترتيب الافكار وتسلسلها، بصورة مركبة ملونة زاهية جمع فيها خصالاً متعددة للملك صلاح الدين لا تخفى على القارئ اللبيب، فمهابته تشعر بها النفوس وتكاد الجبال الصماء ان تنشقَّ، وكل موطن يَمُرُ فيه توشكُ ان تصعقَ فليس بين كفيه للاعداء سوى المنية والموت الزؤام، ولمن يرعوي وينهج بمنهجه له ما تمنى، فجاء بهذه الصورة مماثلة لصورة السحاب الهَطال الذي يروي عطش الارض والناس ولكنه يُغرق في بعض الاحيان، ثم تتابع جزيئات الصورة وتتلاحم فيما بينها مؤلفة صورة رائعة لهذا الملك الذي رايته تخفقُ بالنصر دوماً، فأسِنة الرماح تبرق بالردى والحتف الذي هو مصير كل من يتطاول عليه ويعاديه، ويستشهد الشاعر بما جرى في حطين وكيف ان الملك سقاهم كل مُرَ وأذاقهم من الهوان والموت فمن يذوقه فأنه (يتمطق) به.

وفي القصيدة ذاتها قال كذلك:

مـــآدبُ تضـــحى الضـــارياتُ تؤُمُّهُـــمْ ... كتـــائب منهـــا دالـــفُ ومُحَلّـــقُ
فالـــوى بمـــن افْنَيْـــتَ عنقـــاءَ مُغـــرِبُ ... وخامـــرَ مـــن ابقيـــتَ مَسٌ وآولَقُ... (٣٧)
وأُبـــتَ وثَغـــرُ الـــدين جـــذلانَ ضاحـــكٌ ... انيـــقُ وطـــرفُ الشّـــرْكِ خَزْيـــانٌ مُطِـــرقُ
وفـــي يـــوم بغـــراسَ غرســـتَ صنائعـــاً ... يُحييـــك منهـــا نورُهـــا وهـــو مُوْنِـــقُ
وقدســـتَ ارض القـــدسِ مـــن كـــل مـــارقٍ ... . فـــي دوحـــةِ الشِـــركِ مُعـــرِق
ولاءَمْـــتَ بالبيـــت العتيـــق انصداعَـــهُ ... ومـــا كـــادَ لـــولا صِـــدقُ عزمـــك يعْتَـــقُ
ويـــوم بعثـــتَ البـــأسَ منـــك لكـــوكبٍ ... خبـــا كوكـــبٌ مِـــن عِـــزّهِ متألّـــقُ
وحـــدَثتِ الامـــالُ اهليـــه أنَّـــهُ ... سيعصُمهـــم منـــه مـــلاذ مُرَقَّـــق
ومـــا علمـــوا آن ســـوف تُشْـــعِرُهُ الـــردى ... ولـــو أنّـــه بالشّعْرييـــن مُعَلّـــقُ
وان تـــرم ســـورآ سَـــوْرةٌ مِنـــك تُردهـــا ... ولـــم يَحْمهـــا سُـــورٌ مشـــيَدٌ وخنـــدقُ
فدونكهـــاَ انَّ القضـــاءَ مُســـاعِفٌ ... وعزمُـــكٌ مـــاضٍ والإلـــهُ مُوَفـــقُ
يصـــلي علـــى افعالـــك الله دائمـــاً ... ويثنـــي عليهـــنَّ الكتـــابُ المُصَـــدّقُ

فالشاعر يؤكد على بطولة الملك صلاح الدين من خلال مخاطبته بقوله بأن سيوفُك تسيل حدودها بدمائهم فَمنْ أفْنيْتَهُ فمأواه بطون الطيور(العنقاء) ومن أبقيته فمصيره المَسْ والجنون، أما صورتك وأنت عائدٌ من سوح الوغى، فأنت مُكَّللُ بالعز، واليمُن والظفر،والدين ضاحك مستبشرٌ فقد حفظته وصنتهُ، أما الشرك وأهله فصورتهم مُلطّخَةٌ بالعار والخزي، إما صنائعك في يوم (بغراس) فهي شاهدة على عظيم افعالك، فقد شع نورها وأحال الظلمة الحالكة الى ضياء منتشر في أرجاء الكون، وتتزاحم مكونات الصورة حتى يختمها بأن الله سبحانه وتعالى راضٍ عنك بقوله (يصلي على افعالك)، والكتاب العزيز قد أثنى عليها وباركها.

أما الشاعر محمد بن اسماعيل ابو بكر الحيزاني (ت ٦١٥هـ)، فقد مدح بطولة الملك الناصر صلاح الدين وشجاعته، قال: (٣٨)

بينـــي وبـــين الغنـــى مـــا بـــين راحلتـــي ... وارض مصـــرَ ولكـــن رُبّمـــا قَصُـــرا
لبـــيسَ الغنـــى لـــي فـــي ارضٍ ولا بلـــدٍ ... لكنـــه فـــي يَـــدَيْ مَلْـــكٍ اذا ذكِـــرا

خَــرّتْ ملــوك بــلاد اللهِ ســاجدة اثنـى عشـر كوكبـاً والشـمس والقمـرا

إن هذه الأبيات، وان كان الطابع العام لها هو تصوير الممدوح بالكرم، لكنه ختمها بالقـول الفصـل، فملـوك بـلاد الله باتـت ساجـدة لهـذا الملـك خوفـاً وهلعـاً مـن بطولاتـه وشجاعته وافاعيله، وهذا القول إنما هو اقتباس من سورة يوسف [٣٩] ورؤياه بسجود الكواكب والشمس والقمر.

وبهـذه الصور وغيرها، راح الشعراء يصفون بطولات الملك صلاح الدين وشجاعته وحروبه فالشعراء عند رؤيتهم ما حل بالمسلمين على أيدي الغزاة، قد بلغ التأثر النفسي لديهم مبلغه، وكانوا يبحثون عن (المنقذ) الذي يكون السد المنيع والصخرة التي تتحطم عليها ضربات العدو، فرنت اليه الأبصار مشدودة الى ما يحمله من سجايا متعددة، فهو في الحرب اسدٌ لا يُشقُ له غبار، وفي الكرم كأنه حاتم طي وفي الحلم كأنه الأحنف بن قيس، فهذا الشاعر محمد بن المنذر أبو عبدالله اليابري (ت٦٢٨ هـ)، قـال في وصف الملك صلاح الدين: [٤٠]

ثَمُــرُ المعالــي لايُنــال وان دنــا الاّ باطــرافِ الصــوارمِ والقنــا
فـانهض نهـوضَ اخـي اعتـزامٍ صـادقٍ مـا قــام يدعــو الامــرَ الاّ اذعنــا
كصــلاح ديــن الله والمــلك الــذي يُرجــى ويُخشــى ان تبــاعَد أو دنــا
فيــه لأيــام الزمــانِ محاســنٌ اذ جـاء يُـدعى فـي الملـوك المحُسِـنا
كــم مــن يــدٍ اسـدى وكــم مــن منــةٍ غطـى بهـا فعـل المُسـيء فاحسنـا
كــم وقفــةً شهــدت لــهُ وثباتُــه وثباتُــهُ فيهــا بمشهــورِ الغَنــا
سَــلْ عَنــه ألْسِنــة الرمــاح فإنّهــا تُنبيــك عَمّــا اودَعَتْــهُ الألسُنــا
واسْـتَمِل تُملـي المرهفـاتُ حَديثـه الـ ـمـروي عنـه يـوم الكفـاح الاحْسَنـا
مــا بــات الاّ مستَجيشَــاً عزمُــهُ فتــراه فــي سفــرٍ اذا مــا اســتوطنا

فهنا يؤكد الشاعر على معاني العلو والشموخ وانها لاتُنال الا بالعزيمة المرتكزة الى القتال البطولي ويهيئ الشاعر الذهن لتقرير الحُكم الذي اطلقه بحق الملك بقوله (نهوض اخي اعتزام صادق) واصفاً صلاح الدين بأن الناس ترجوه وتخشاه في الوقت نفسه، فافعاله وما قام

به من توطيد أركان الدولة ومجابهة الغزاة، وكأنها منَنٌ غطى بها أفعال المسيئين، والشاهد في ذلك ثبوته ووثباته في نصرة الحق ورد كيد المعتدين، ومن يشك بذلك فليسأل السِنة الرماح فعندها الخبر اليقين المروي عن كفاحه وبطولاته،فهو لا يهدأ ويستقر بمكان الاّ وغادره نحو داعي الجهاد من أي حدب وصوب وعلى امتداد ارض الدولة الايوبية.

ومن صور بطولة صلاح الدين الأيوبي، هذه الصورة التي جاء بها الشاعر شجاع بن علي بن أبي زهران الموصلي (ت٦٢٠هـ)، إذ قال:[٤١]

اذا الحربُ اعَيتْ كل قرم وباسلٍ	وخامَ شجاعٌ واستُسِرَّ هُمامُ
وجاشت نفوسُ المسلمين بأسرِهمْ	وعزَّ على المستسلمين كلامُ
كَشَفْت قِناعَ الروعِ عنهم بمُهجةٍ	تميتُ وتحيي والصفوف قيامُ
وحين لقيتُ المشركين وظنُّهُمْ	بأنهم في الحرب ليس يضامُوا
ادرتَ عليهم بالصوارم والقنا	كؤوساً لها مَزجُ الدماء مَدامُ
وغادرتَ فتح القدسِ للناسِ آيةً	ولم يكُ حتى الحشرُ قَطُّ يُرامُ
تهَنّى به الإسلامُ شرقاً ومغرباً	وصلى لديه العابدون وصاموا
ضمنْتَ لرب العرشِ ملء جهنَّمِ	مِنَ الناسِ فاقتُل ماعليك أثامُ

إن ما يلاحظ على هذه الأبيات هو إستخدام الشاعر الفاظاً إسلامية تعكس تأثر الشاعر بجهاد الصليبيين ٬ فصورة الملك صلاح الدين البطولية قائمة على سرعة إجابته الى نداء الجهاد فالشاعر بدأ صورته بتوضيح حال المسلمين عند نشوب الحرب التي أعيت الأبطال والبَسَلَة وكادت نفوس المسلمين تصاب بالخيبة وهي ترى فراغ سوح الوغى من البطل الصنديد حتى عز الكلام فإذا الملك الناصر يكشف قناع الرّوع بقلب ثابت وعزم لا يلين يسندها سيف بتار يميت ويحيي فاسقى المشركين الَّضْيم، ثم أدار عليهم بفعل سيفهُ الصارم ورمحه الفاعل بهم كل فعلة فكان أن أدارعليهم كؤوساً مدامها ممزوجاً بدمائهم، وأصبح فتح القدس وتحريرها آية للناس والمسلمين فكانت وقعة عظيمة استحالت الى تهنئة متواصلة بين المسلمين شرقاً وغرباً واخيراً فالجزء الأخير من الصورة يحكي كيف ان الملك قد ضمن لرب

العرش آلاف القتلى الذين مآلهم جهنم لا محالة ثم يدعوه الى قتل كل معتدٍ سولت له نفسه محاربة الملك، وهذا القتل ليس عليه إثم ولا جريرة، بل له فيه الأجر والثواب عند الله تعالى.

وأما بطولة الملوك الأيوبيين الآخرين وشجاعتهم، فقد صورها الشاعر احمد بن علي بن ابي زنبور النّيليُّ، (ت٦١٣هـ)، فقال: [٤٢]

يـــابني أيـــوب مـــا اشرَفَكُـــمْ مـــن صناديـــدَ كـــرامُ لكريـــمْ
عَرفـــت اخلاقُكُـــم اعراقكُـــمْ انكـــم ارثُ صـــميمً عـــن صـــميمْ

فهنا تبدو صورة بني أيوب واضحة جلية في كونهم صناديد كرام ورثوا هذا المجد والشرف ودلت على ذلك أخلاقهم ونبهت الى اعراقهم واصلهم النبيل.

وقد تنافس الشعراء في وصف وتصوير بطولات ملوك بني أيوب، فهذا الشاعر احمدُ بن إسحاق المعروف بابن قاضي خلاط، (ت٦١٧ هـ) قد مدح بطولة الملك الاشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب [٤٣]،فقال: [٤٤]

هُمامٌ هو الحامي حمى الدين حيث لا مَـــرَّد لـــه عَمّـــن تصـــدى لنهبـــه
بـــا مْلـــَدَ خطّـــيُّ يريـــدُ اعوجاجـــه لتنســـاب ريـــمُ الرمـــلِ مـــن بـــين كَثْبـــهِ

فالملك همامٌ حامي حمى الدين، ولا يستطيع مخلوق ما أن يتصدى له ولسيفه ولضرباته. و للشاعرالساطع بن عبد الباقي، القاضي الأديب، أبي البيان المعريّ التنوخي، (ت ٦٢١هـ)، هذه الابيات في تصوير بطولة الملك الظاهر غياث الدين غازي بن يوسف الأيوبي[٤٥]،فقال: [٤٦]

تخافُـهُ الاســدُ فـي الاخيـاسِ مُشـبلة وتستحـــي مـــن حيـــاهُ المسُتَهـــلاتُ
يـا ايهـا الملـكُ السـلطانُ لا بَرِحَـتْ تُهـــدى اليـــك التهانـــي والمَســـرّاتُ
هُنيّـــتَ بالناصـــر الثـــاني وُدْمَـــت لـــه مـــا دامـــت الارضُ تعلوهـــا الســـماواتُ
ملـــك ابـــى اللهُ الاّ ان يكـــون لـــه جَـــدُ كجدَّيـــهِ تتلـــوهُ السعـــاداتُ
مـــاذا يـــقولُ الـــذي مـــا إثـــرهُ... فـــي مشـهدِ الحمدِ لو تغني المقلاتُ
جـــــدودهُ أم ابـــــوهُ ام عمومتـــــه ام الخؤولـــــةُ حسبـــــي والتحيـــاتُ ؟

إن هذه الصورة جاءت في غاية الروعة،فالملك الظاهر تخافه الأُسدُ وقد جرت عادة الشعراء على تشبيه شجاعة الممدوح بالأسَدْ، فما بالنا اذا كانت الأُسْدُ هي التي تخافُه، فهذه صورة فريدة لمنتهى الشجاعة والإقدام والبطولة، وكذلك يصوره بالناصر الثاني بعد الناصر صلاح الدين الذي تأتيه التهاني والمسرات بفضل صنائعه ويختتم ذلك بجزء بديع، بل جاء القول والتصوير بأبهى صورة، إذ إن الملك هو سليل جدوده وعمومته وخؤولته،وهم بني أيوب، ملوك الدنيا وأصحاب الشرف والمجد.

وللشاعر نفسه صورة أخرى رسمها هذه المرة للملك المنصور [٤٧]، صاحب حماة، فقال: [٤٨]

هو الملك المنصور والناصرُ الذي ... لهُ عادَ ذئباً عاوياً كلُّ مُسبَعِ
ومُرسِلُها مثلَ السعالي عوابساً ... فوارسُها من كلَّ ليثٍ مُدَرَّعِ

فشجاعة الملك المنصور وبطولته صَيّرت السباع ذئاباً، وليس ذئاباً فقط بل أصبحت هذه السباع بفعل الخوف من سطوة الملك المنصور ذئاباً عاوية باحثة عن الطعام وقد أصابها الجوع، فهذه صورة للملك الذي بسط سلطانه وإرادته وعدله، فأصبحت الأرض لا مكان فيها للذئاب والحيوانات المفترسة. ثم يكمل صورته بأن الملك يُرسل رهبته للأعداء ويخيفهم كمثل السعالي التي يخاف منها الناس، وهذه السعالي العابسة ما هي الاّ الفوارس المدرعة والليوث الذين يحدوهم الملك المنصور في مجابهته للمارقين وأعداء المملكة.

ويطالعنا الشاعر عبد الله بن علي المعروف بإبن القيريني (٦٠٦هـ أو ٦٠٧هـ) بهذه الأبيات مصوراً الملك المنصور محمد بن عمر بن أيوب صاحب حماة، فقال: [٤٩]

الملك المنصورذي الَّ ... طول الجزيل الارفعِ
مُردي الكماة بالموا ... ضي والرماحِ الشُرَّع
سَل عنه في يوم النزا ... لِ بالقَنا المُزعزعِ
هل غيرُه كان المجـ ... ـيبُ في الوغى اذا دُعيَ؟
أم كشَفَتْ غمامَها ... بالبطلِ السّرَعْرع

مـــــــَن رَدَعَـــــــتْ سيوُفُـــــــه فـــــي الّـــروعِ مـــن لـــم يُـــردَعِ

وهذه الصورة التي رسمها الشاعر للملك المنصور، تجسد شجاعته في مقاتلة الكماة من الأعداء بالسيوف والرماح المُشرعة بوجوههم فهو المجيب الى داعي النداء يوم اللقاء ولا غيره من مجيب، وهو الرادع لكل من لم يرتدع وهو البطل المقدام الذي يكشف غمام المعارك ويجلوها، مع ما يلاحظ من استخدام الشاعر لبعض صيغ الأستفهام مثل (هل، أم) مؤكداً من خلالها على بطولة الملك الفائقة.

وبهذا المعنى جاء الشاعر عبد الرحمن النابلسي (ت٦١٩هـ)، واصفاً شجاعة الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي [٥٠]، فقال: [٥١]

قـــرَمُ اذا اغمـــدَ الظُّبـــا خَـــوِرٌ فَعُرفُـــــهُ كالقضـــــاءِ مســـــلولُ
حيـــثُ لَحَـــدِ العَضْـــب المهنـــد فـــي خـــــدِ الشـــجاع الكمـــي تقبيـــلُ
يَقْـــدُمُ فـــي الّـــروْعِ كـــالاتي وللضـــ رب بهـــــامِ الكُمـــــاة تنكيـــــلُ
ساعـــةَ ذو الجـــأش دمْعُـــهُ طلـــقُ وعقلُـــــهُ كاليَديْـــــن معقـــــولُ
فكـــم لـــه وقفـــة علـــى غُـــرَر لا ينقضـــي ذكرهـــا وتحجيـــلُ
ورتبـــة مـــا اســـتوى الاجـــل الحـــ تـــمُ بهـــا مـــن يشـــاءُ مثكـــولُ
كـــان لديـــن الهـــدى بســـاحتها عـــــزٌ وللمشركيـــــن تذليـــــلُ
وجـــاز فـــي البـــأسِ حَـــدَّهُ فلـــذا تحـــارُ فـــي وصـــفهِ الاقاويـــلُ
فهـــاربٌ لـــمَ يَلُـــذ بساحتـــه لَحـــمٌ بنـــاب الخطـــوبِ مأكـــولُ

فهذه المعاني المكرورة التي ألفها الشعراء لممدوحيهم، نابعة في الأصل من تأثرهم وإعجابهم ببطولات الملوك الأيوبيين وشجاعتهم اذ ادلهم الخطب وجاء الامرُ الجلل بكثرة الخارجين على الدولة ومحاربتها، فالشاعر يرى في الملك انه يفعل الأفاعيل في العدوّ وفرسانه وشجعانه، ولسيفه اثر في خد الشجاع فهو كالتقبيل، والتنكيل بالكماة في ساعة اشتداد الحرب، فسيفه مسلول دائماً، ومآثره وبطولاته لا ينقضي ذكرها، فأصبح عزٌ للمسلمين وذلُ

للمشركين، لذلك فيحتار المرءُ في وصفه، وتقف الاقاويل قاصرة عن الوصول الى الغاية في تصويره وأعطائه حقه.

وتأتي صور البطولة في اغلب الأحيان على هذا النحو، فالشاعر عبد العظيم ابن عبد الواحد المعروف بابن الاصبع (ت٦٥٤هـ)، صَوَّرَ الملك الاشرف موسى بن محمد الايوبي، قال: (٥٢)

اذا رُعِـدَت خيـلٌ لِبَـرقِ سيوفِـهِ ... غـدا الوبـلُ نَـبلاً والقسـيُّ لهـا دجنـا
اذا امطـرت ارضُ الـوغى مـن عُداتـه ... جماجـمَ ريحـانٍ ببيـض الظُّبـى تَجْنـى
تأمـلْ اذا مـا جأتـهُ لمِلُمّـةٍ ... ترى اليُسرَ في اليسرى كما اليُمنَ في اليمنى
تَظُـنُّ بهـا مـن كثـرةِ اللـثمِ حُمـرةً ... وحاشـا اليـد البيضـاءِ مِـن أثـرِ الحِنـّا

إن هذه الصورة التي رسمها الشاعر للملك الاشرف تُعبر عن بطولة فائقة كان لبرق سيوفه أعمق الأثر في هذا التشكيل الصوري فجاء الشاعر بمفردات الرعد، المطر مُعبّراً فيها عن سقوط جماجم الأعداء كما يتساقط المطر، فهي تُحصد بحد السيف، وإذ ما دُعي الى مُلَّمةٍ فتجد التجاوب باليُسر واليُمن بين يديه، وللشاعر علي بن محمد بن إبراهيم المُدنتانُّي (ت٦٣٠هـ)، هذه الأبيات في صورة بطولة الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه الايوبي، قال: (٥٣)

كـم فـي قلـوب العـدا كَلْـمٌ لخيفتـهِ ... لكنـه بسنـان الرُّمـح مَسْـبورُ
لا غَـرْوَ ان فَـرّقَ الاعـدا بسـطوتهِ ... وهـم فريقـان محصـودُ ومحصـورُ
بـدر كواعبـه الخرصـانُ راجمـة ... اذا دجـا مـن عجـاج الحـرب دُيْجـوُرُ
ملـكٌ هـو البحـرُ مَرْجـى ماسـجا فـاذا ... ماهـاجَ مـوجُ ظبـاه فهـو محـذور

فالشاعر هنا جعل الأعداء تخاف منه بل إن الأعداء أصابهم الكلم، فهم مجروحون من شدة خوفه وشدة بأسه فهو ممزق العدا الى فريقين فأما محصود مقتول على يد الملك المنصور وإما محاصرُ ينتظر النهاية المأسوية ثم يشبهه بالبحر وما يرتجى منه، فاذا هاج هذا البحر – موج ظباه– أي ان هياج سيوفه تحذر منه الاعداء – وهذه الصورة البديعة لشجاعة

وبطولة الملك نجدها مكرورة لدى اغلب الشعراء الذين جاءوا بتصوير ممدوحيهم واسبغوا عليهم من معاني الاقدام والتضحية الشيء الكثير، فهذا الشاعر علي بن محمد المعروف بابن النبيه (ت٦١٩هـ)، الذي كان مقرباً من الملك الاشرف موسى بن محمد الايوبي وله فيه مدائح عديدة منها هذه الأبيات مصوراً الملك بكل معاني البطولة، قال: (٥٤)

أطــلَّ علــى اخــلاطَ يــومَ قُدومِــهِ بلُجَّــةِ جـيش تمــلأُ السـهلَ والـوعرا
وقــد بـرزت فـي شـكةٍ مـن سـلاحها فَلَـوْ أُمِــرَت اخـلاطُ مـا خالفـت امـرا
تَلّقــاه مــن بُعْـد المسافــة اهلُهــا فــذا رافـعُ كفٍّــاَ وذا سـاجدٌ شكــرا
فَشَككتُ ان النـاَسَ قد حشروا ضـحى ام النــاسُ يستســقون رَبّهُــم القطــرا
تسـير ملــوك الارض تحـت ركابــه واعناقهــم مــن هــول هيبتــه صَعْــرا
إذا انفرجــت عنــه بُــروقُ سُيُوفهــم رأيت النجـوم الزّهـرَ قـد فارقـت بــدرا
فللــه يــومَ عــمَّ تفلـيس حَــرْ بُــهُ وسـارت الـى ارض العـراقِ بـه البشـرى

إن الشاعر ابن النبيه يحاول في هذه الصورة ان يمزج بين صورة ممدوحه الملك الاشرف موسى بما يتخيله من حال نبي الله موسى عليه السلام،فاسم الملك وبطولته اوحيا الى الشاعر ان الصورة هي عينها صورة النبي موسى عليه السلام وقد تواعده السحرة وفرعون بالامتحان فجاء الشاعر بهذا القول: (فشككتُ ان الناس قد حشروا ضُحىً)(٥٥)، وهذه الصورة غاية في الروعة، فالملك في اطلالته على اخلاط قد قدم بجيش كأنه لُجّة فامتلأ السهل والوعر بعدده وتعداده، فاصبحت اخلاط قلعة زاهية بوجود الملك فيها، مُنفّذة اوامره وقد خرج اهلها لاستقباله فصورتهم جاءت عبر (فذا رافع وذا ساجدُ شكراً) فأصبحوا فريقين يجمعهم قلب واحد تحت خيمة الملك الوارفة الظلال، حتى إن ملوك الأرض ومن هلعهم وخوفهم من شدته وعزيمته ساروا تحت ركابه، ومن يريد التصديق فعليه سؤال (عَمَّ تفليس) فعندها النبأ والخبر، إذ فعل فعلاته في ذلك اليوم المشهود.

وفي موضع آخر، نجد الشاعر نفسه قال موضحا شجاعة الملك الاشرف موسى وبسالته: (٥٦)

موســـى الـــذي ازرى بكســـرى | آنفـا فـي اسـرِ ايـوان عـن الايـوانِ
لّمـا اتـاه علـى الجزيـرة بعـدما | سـدّت عليـه الكـرُجُ كـلَّ مكـانِ
بجحافـل زُمَـرُ الملائـك فوقهـا | محفوفـة بخواطِـف العقبـانِ
لا يهتـدون اذا ادلَّ عجـاجهم | الاّ بشُعلـة صـارم وسِنـانِ
فَجَـلا عـن الاسـلامِ ظُلمـة كُفـرهم | وأعـاده للِعِـزَّ بَعـد هَـوانِ
طَهَّـرْتَ ارمينيـة فاسْـتبْدَلَتْ | مـن دقّ نـاقوس بصـوت آذانِ
نَفَـذت جُسُـومهم الرِّمـاح كـأنهم | يتلـون آيـاتٍ مـن القـرآنِ

فالملك الاشرف موسى في نظر الشاعر – هو الذي ازرى بكسرى بجلبه الجحافل وقد قادتها زُمر الملوك – ولا يعرفون الطريق إلا بشعلة من سيفه الصارم وسنا برق سلاحه الذي ازاح ظلمة الكفر والهوان عن الاسلام، فبدلا من أن يسمع الناس دقات الناقوس أصبحوا يسمعون صوت المؤذن وهو يَمْخَر عنان السماء مجلجلاً ومعبراً عن انتشار الاسلام وعلّوه ورفعته.

أما الشاعر الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي، فله بعض القصائد في الفخر، إذ افتخر بنفسه كأحد ملوك بني أيوب الذين سادوا البلاد والعباد وفي هذه القصيدة نجده يفخر بنفسه معددا صفات الشجاعة والبطولة لديه، قال: (٥٧)

وقائلـةٌ هـذا الجنـون الـى متـى | فقلـت الـى أن يرجـع الضـوءُ مُظلمـا
وقُلـتُ لهـا لاتُكـثري اللـومَ للفـتى | فمَـنْ لامَ صَـبّاً فـي الهـوى كـانَ الْأَمَـا
فقلـتُ لهـا: إنـي الـى المجـد سابـقُ | واعجـزُ فـي العليـاء قيْسـاً وجُرهمـا
سأشغـلُ نفسـي بالمكـارم والعـلا | واجعـلُ لَهْـوي مَشْرفيـاً ولَهْـذَما
ولابُـدَّ ان اسـطو بجـيش عرمـرمٍ | أفُـلُّ بـه فـي الكُفـر جيشـاً عَرَمَرمـا
فاعمـلُ رمُحـي أو ارأه مُقصـداً | واعمـلُ سيفـي أو اراهُ مُثَلَّمـا
لأظهـر حقَّـا أو لأخفـي بـاطلاً | وانصـرُ دينـاً قـد أتانـا مـنَ السَّمـا
وآنصـرَ ديـنَ الهاشمـي محمـداً | علـى كـلَّ ديـن فـي الـورى مُتَحكَّمـا
وانشـرَ مـا اضـحى مـن النصـر طاويـا | وافـتح مـا امسـى مـن الارض مُبْهَمـا

وابنـــي للإســـلامِ بَيْتـــاً مُشيـــدا كمـا شـادَهُ الكـفارُ اضـحى مُهَدّمـا

إن ما يلاحظ على هذه القصيدة هو تصويرها للمحاورة التي جرت بين الشاعر والمرأة التي خاطبها، فأعتمد الشاعر في بناء صورته على المحاورة، اذ كانت وسيلته في عرض صورته في فخره بنفسه ليجعل منها لوحة ملونة بكل الصفات والمثل التي تتوق اليها النفوس، فصورة الملك الشاعر تبدو واضحة الى حد بعيد، اذ ان الملك افتخ بنفسه وببطولته وبقيادته للجيش العرمرم الذي يفل به جموع الكفر وينصر الدين الاسلامي، فبطولته اهابت نفوس الأعداء وزرعت الخوف والرعب في قلوبهم.

وفي القصيدة كذلك:

لئن كان عصري في العصور مؤخرآ فانـي اغدو في المعالي مُقَدَّما
أنا الفارسُ المعروف أُعزى وانتمي الى آل أيوب وهم خيرُ مُنتمى
هُمُ القومُ ما من مالكٍ أو مُعَظَّمٍ على الناس الاّ قد غَدَوا منه أعظَمَا
مُظَفَّرُهم في الجود والبأسِ والندى واقدُمهم يومَ الوغى مُتقدما
وما زالُ في يوم الجلادِ مُجالداً بسيف غَدا للمشركين مُكَلما
فمهلاً بني الإفرنج اني مُعيدها عليكم كحُطَّيْن الاولى وكأنّما
فمن كان بالبيضِ ضارباً فلابُدَّ ان يَرقى مِنَ العِزَّ سُلّما

فالملك الشاعر عزز صورة فخره بنفسه كأحد ملوك بني ايوب مؤكداً على انه مقدم في المعالي وإن تأخر عصره، وهنا تبدو الصورة الثانية المتداخلة التي خصّها لبني أيوب الذين هم اعظمُ الملوك سواءً في الكرم والندى أو في الشجاعة والبطولة فهم المقدمون على غيرهم وكل ملك منهم هو مُظفّر بصفاته ولاسيما الإقدام، ويؤكد ذلك بقوله (ومازال في يوم الجلاد مجالداً...) وجاءت الخاتمة بأبهى صورة: فمهلاً بني الافرنج... ويؤكد انه مُعيدها كمعركة حطين التي أذاقهم فيها الملك الناصر صلاح الدين مَرّ الهزيمة والهوان، فالملك المنصور يُذكرهم بها مهدداً متوعداً بأنه مُعيدها عليهم بما فيها من ذل وتحطيم جبروتهم وكسر شوكتهم، وهذا الجزء من الصورة هو الذي أعطى لها جمالية وأضاف لها بعداً زمانياً، إذ إن الإيحاء من الملك الشاعر

للإفرنج بحطين هو على سبيل إيقاع الرعب والرهبة في نفوسهم وهزيمتهم الداخلية النفسية ستحلُّ بهم قبل أن يلقاهم على ساحة القتال مؤكداً ذلك بأن من يحمل السيوف ويضرب بها بكل عزيمة واقتدار (كحال الملك) فلابد له من ارتقاء وصعود مراتب العز والرفعة.

وهكذا نجد هذه الصور الرائعة في البطولة التي جادَ بها الشعراء وجاءوا بها تأثراً بالملوك من بني أيوب الذين كانوا سيوفا مشرعة وبتارة في مجالدة كل من سولت له نفسه وتجرأ على غزو ديار العرب والمسلمين، فكانت هذه الصور ناصعة تحكي لنا شموخ هؤلاء الأبطال وصلابتهم في الدفاع عن حياض الأمة كونهم نذروا أنفسهم لهذا الشرف العظيم الذي لا يعلوه شرف، فضلاً عن إن ما قاله الشعراء يبدو في أحيان كثيرة بأنه قطرة في بحر عظمة الملوك وما قاموا به من أفعال أعادت مجد الأمة وكرامتها ولاسيما ما قام به الملك البطل الناصر صلاح الدين في حطين وغيرها.

هوامش البحث

١- ينظر: قلائد الجمان: ٢٠/١.

٢- ينظر: منهج ابن الشعار الموصلي (ت ٦٥٤ هـ) في كتابه ((قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)): ٢١.

٣- ينظر: ديوان المبشرات والقدسيات: ٩٩.

٤- ينظر: المصدر نفسه: ٩٩ – ١٠٠.

٥- لسان العرب، مادة (صور) .

٦- معجم مقاييس اللغة: ٣٢٠/٣.

٧- ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: ١٤.

٨- ينظر: الصورة في السرد الروائي والسرد السينمائي: ١٥٧.

٩- الصورة في شعر بشار بن برد: ٥١.

١٠- ينظر: الصورة الأدبية: ٣.

١١- الحيوان: ١٣٢/٣.

١٢- كتاب الصناعتين: ٢٦٧.

١٣- دلائل الأ عجاز: ٣٦٥.

١٤- الصورة الفنية في المثل القرآني: ٣٠.

١٥- الصورة الشعرية: ٢٣.

١٦- أصول النقد الأدبي: ٢٤٢.

١٧- ينظر: المرجع نفسه: ٢٤٩ – ٢٥٠.

١٨- ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني:٢٢.

١٩- معجم المصطلحات العربية: ٧٨.

٢٠- ينظر: البطولة والأبطال: ٩.

٢١- شعر الحرب في العصر الجاهلي: ٧٠.

٢٢- الكامل في التأريخ: ١٧٤/٢.

٢٣- شعر الحرب عند العرب: ٨.

٢٤- ينظر: المرجع نفسه: ٩.

٢٥- ينظر: فصول في الشعر ونقده: ١٧٤.

٢٦ . ديوان ابن سناء الملك: ٤٨٣.

٢٧ . البطل في التراث: ٤ ـ ٥.

٢٨ . ينظر: المرجع نفسه: ١٠ ـ ١١.

٢٩ – ينظر: المرجع نفسه: ٣٤.

٣٠ . المفضليات: ٢٩.

٣١ . الضنابيب: جمع ضنبوب، وهو حرف عظم الساق، جعلها عارية لهزالها، والعرب تمدح الهزال وتهجو السمن، النواشر: عروق ظاهر الذراع، مدلاج: كثير السفر، الأدهم: الليل، واهي الماء: المطر الشديد الذي لايمسك سحابه الماء، غساق: شديد الظلمة، غزوي: مقصدي، ضافي الرأس: كثير الشعر، نغاق: شديد الصوت.

٣٢ . خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام: ٢٢٢/١.

٣٣ . مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني: ٩٠.

٣٤ . الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: ٤٦١/١.

٣٥ . قلائد الجمان: ١٨٠/٥ ـ ١٨٢.

٣٦ . الفراغ في هذا البيت والبيت اللاحق كلمات ساقطة من الأصل، ينظر قلائد الجمان: ١٨١/٥.

٣٧ . اولق: اصابه الجنون.

٣٨ . قلائد الجمان: ٦ /١٠٣.

٣٩ . سورة يوسف / الآية: ٤.

٤٠ . قلائد الجمان: ٦ / ٢٦٩.

٤١ . المصدر نفسه: ٣ / ١١٧ ـ ١١٨.

٤٢ . المصدر نفسه: ١ / ١٦٦.

٤٣ – الملك الاشرف: هو موسى بن ابي بكر (العادل) بن ايوب بن شاذي، ابو الفتح شرف الدين: ينظر شفاء القلوب: ٢٩٠، وفيات الاعيان: ٥/ ٣٣٠.

٤٤– قلائد الجمان: ١/ ١٧٨.

٤٥– الملك الظاهر: غازي بن يوسف بن ايوب بن شاذي، الظاهر غياث الدين ابن الملك الناصر صلاح الدين (ت٦١٣هـ)، ينظر: شفاء القلوب: ٢٥٢.

٤٦– قلائد الجمان: ١٠٢/٣.

٤٧ – الملك المنصور: هو محمد بن شاهنشاه بن ايوب بن شاذي: ينظر: شفاء القلوب: ٣٣٧، الاعلام: ٦/ ٦١٦.

٤٨– قلائد الجمان: ٣/ ١٠٦.

٤٩– المصدر نفسه: ١٨٦/٣.

٥٠– الملك المظفر: عمر بن شاهنشاه بن ايوب بن شاذي، تقي الدين بن نور الدولة، ينظر: وفيات الاعيان ٣/ ١٢٨، شفاء القلوب: ٢٣٤.

٥١– قلائد الجمان: ٣/ ٢٧٤.

٥٢– المصدر نفسه: ٤/ ١٦١.

٥٣– المصدر نفسه: ٤/ ٢٨٥.

٥٤– المصدر نفسه: ٤/ ٢٣٤.

٥٥– اقتباس من الآية الكريمة (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) سورة طه: الآية ٥٩.

٥٦– قلائد الجمان: ٤/ ٢٣٦.

٥٧– المصدر نفسه: ٢٠٨/٦ –٢٠٩.

المصادر والمراجع

١ . اصول النقد الأدبي / احمد الشايب / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة / ط١٠ /١٩٩٤م.

٢– الأعلام / خير الدين الزركلي / دار العلم للملايين / بيروت / ط٥ / ١٩٨٠م.

٣– البطل في التراث / د. نوري حمودي القيسي / دار الشؤون الثقافية / بغداد / د.ت.

٤– البطولة والأبطال / احمد محمد الحوفي / مطبعة النهضة / مصر / ١٩٥٧م.

٥ . الحيوان / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون / دار الجيل / بيروت / ١٩٨٨م.

٦- خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء الشام / عماد الدين محمد بن حامد الكاتب (ت ٥٩٧هـ) / تحقيق د.شكري فيصل / مطبعة المكتبة الهاشمية / دمشق / ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م .

٧ . دلائل الأعجاز في علم المعاني / عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي / دار الكتب العلمية / بيروت / ط١ /١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م

٨- ديوان ابن سناء الملك (ت٦٠٨ هـ) /اعتناء وتصحيح وتعليق وتقديم: د. محمد عبد الحق، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية / حيدر آباد الدكن /ط١/ ١٩٥٨م.

٩- ديوان المُبشرات والقدسيات / عبد المنعم الجلياني (ت٦٠١ أو٦٠٢ هـ) / تحقيق: د. عبد الجليل حسن عبد المهدي / دار البشير / عمان- الاردن / ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

١٠- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية / شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بإبن شامة (ت٦٦٥هـ) تعليق: إبراهيم شمس الدين / دار الكتب العلمية / بيروت /ط١/ ٢٠٠٢م.

١١- شعر الحرب عند العرب / سلسلة الموسوعة الصغيرة / د. نوري حمودي القيسي / دار الجاحظ للنشر / بغداد / ١٩٨١م.

١٢- شعر الحرب في العصر الجاهلي / د. علي الجندي / مطبعة الرسالة / مصر / ١٩٥٨م.

١٣- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب / احمد بن إبراهيم الحنبلي (ت ٨٧٦هـ) / تحقيق: د. ناظم رشيد / دار الحرية للطباعة / بغداد / ١٩٧٩م.

١٤ . الصورة الأدبية / د. مصطفى ناصف / دار الأندلس / بيروت /ط٣ / ١٩٨٣م.

١٥ . الصورة الشعرية / سي . دي لويس / ترجمة: د. احمد نصيف الجنابي، مالك ميري، سلمان حسن ابراهيم / مراجعة: د. عناد غزوان اسماعيل / دار الرشيد للنشر/ بغداد / ١٩٨٢.

١٦ . الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي / جابر عصفور / دار الثقافة / القاهرة / ١٩٧٤م.

١٧ . الصورة الفنية في المثل القرآني / د. محمد حسين علي الصغير / دار الرشيد /بغداد /١٩٨١م.

١٨ . الصورة في السرد الروائي والسرد السينمائي / مجلة الأقلام /بغداد / عدد٢/ ٢٠١٠م.

١٩ . الصورة في شعر بشار بن برد / عبد الفتاح صالح نافع / دار الفكر / عمّان / ١٩٨٣م.

٢٠- فصول في الشعر ونقده / د. شوقي ضيف / دار المعارف / مصر / ط٣/ ١٩٨٨م.

٢١- قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، المشهور بـ عقود الجمان في شعراء هذا الزمان /كمال الدين أبو البركات بن الشعار الموصلي (ت٦٥٤هـ) تحقيق: كامل سلمان الجبوري / دار الكتب العلمية / بيروت / ط١/ ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

٢٢- الكامل في التاريخ / أبو الحسن علي بن ابي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠هـ) تعليق نخبة من العلماء / مطبعة الاستقامة / القاهرة / د.ت.

٢٣ .كتاب الصناعتين ـ الكتابة والشعر/ ابو هلال الحسن بن عبدالله ابو سهل العسكري (ت ٣٩٥ هـ) تحقيق مفيد قميحة /دار الكتب العلمية / بيروت /ط٢/ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٤- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني / د. بكري شيخ أمين / دار الأفاق الجديدة / بيروت /ط٣/١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

٢٥- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب / مجدي وهبة وكامل المهندس / مكتبة لبنان / بيروت / ط٢ / ١٩٨٤م.

٢٦ . معجم مقاييس اللغة / ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون / مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي / قم . ايران / ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٢٧- المفضليات / المفضل بن محمد بن يعلى الضبي (ت ١٧٨هـ) / تحقيق: احمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون / دار المعارف / مصر / ط٩/ ٢٠٠٦ م.

٢٨ . منهج ابن الشعار الموصلي (ت ٦٥٤ هـ) في كتابه ((قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)) اطروحة دكتوراة / منى شفيق توفيق القيسى / اشراف: ا.د نادية غازي العزاوي / كلية التربية / الجامعة المستنصرية / ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٩ . لسان العرب / ابن منظور (ت ٧١١ هـ) تحقيق: عامر احمد حيدر / دار الكتب العلمية / بيروت / ط١/ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٠- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / أبو العباس احمد بن إبراهيم بن خلكآن (ت ٦٨١هـ) / تحقيق: د. يوسف علي الطويل، د. مريم قاسم طويل / دار الكتب العلمية / بيروت / ط١ / ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

ABSTRACT

The book "Qala'id Al Juman Fe Fara'id Al Shu'ara' Hadha Al Zaman", the famous for the title "Uqud Al Juman Fe Shu'ra' Hadha Al Zaman of Kamal Al-Dean Abi Al-Brakat Al Mubarak bin Al Sha'aar Al Mosouli (d. 654 A.H.), that is one of the important sources which chronicled for long time of the Islamic Arab state History ; moreover his biography for a considerable group of the famous poets who were contemporary to the author, especially the period of his journeys which he started in 622 A.H., until his death in (654 A.H.). Then ; the investigator of the book Mr. Kamil Salman Al Jubouri that the book is composed originally of ten big volumes, fortunately eight parts remained, whereas the second and eighth parts were lost both.

The author in this book dealt with the biography of (1004) poets of his time, six of which were repeated biographies. These biographies were arranged a phonetically. Moreover the biographies of poets, the book was important because it presented the biographies of those people belonging to different classes ; the common divisor of whom was poetry, the were represented by the Ayyubid kings, jurists, scientists, historians, geographers, men of letter, poets, jurisprudents, and mystics. Ibn Al Sha'ar not deal with a group of certain craft, or one class of people, a country because the book in most of its parts contains poems for presenting and eulogizing the people of Ayyub ; whereas the texts was interrogation to find the forms of courage and championship presented by the Ayyubids, these people who showed through their struggle against the crusaders, enemy of the Islamic nation the most wonderful example in steadfastness, struggle, and fighting enemy, where these heroes could liberate Jerusalem expelling the invaders in decisive battles in which they proved that they were king of a unique example assumed their positions in such a deserved way.